

خصائص خطبة حجة الوداع

عبد الباقي يوسف - كاتب سوري



النزعة العدوانية وهنت النزعة الإنسانية، وكلما استقوت النزعة الإنسانية وهنت النزعة العدوانية. تبين لنا هذه الخطبة الجوهرة أن أفضل انتباه يكفل للإنسان التزامه بحدود الله، هو انتباهه إلى أهمية ممارسة مزايا إنسانيته، وفقط عندما يلتزم الإنسان بحدود إنسانيته، سيتولد من ذلك التزام بحدود النفس، حدود الآخرين، حدود الله، وعلى هذا فإن الذي يعتدي على حقوق نفسه، أو على حدود الآخرين فإنه مع ذات الخطوة يخرج عن إنسانيته، لأن الطبيعة الإنسانية لا تقبل أن يبقى الإنسان داخل منظومته الإنسانية وهو يعتدي على حياة أو أملاك أو أعراض إخوته، إنه في تلك اللحظات الاعتدائية الرهيبة يكون خارجاً عن إطاره الإنساني.

معالم النزوع الإنساني
تجلو النزعة الإنسانية في مستهل هذه الخطبة ببيان تحريم الاعتداء على حياة وممتلكات الآخرين، وللتحريم المباشر بصيغة الأمر وقعه الشديد في حفظ حق الإنسان وتمتعه بحياته وممتلكاته.
عندئذ يدعو النبي ﷺ عامة الناس بقوله: «أيها الناس»، الذي يتكرر دون

هذا العمر الحافل والفني بكل مقومات الحياة بكل جوانبها. إنه يتحدث وهو يقف في أعلى قمة النضوج الإنساني، يتحدث بجواهر الكلم التي تنبّه الإنسان إلى أهمية تمسكه بمزايا إنسانيته، وترويضه السليم لمعالم النزوع الإنساني في فطرته، لأن النزعة الإنسانية تتقدم وتفتح وتشرق كلما مارسها الإنسان وارتقى بها، وتصاب بالوهن والجمود والشلل إذا لبثت دون ترويض وممارسة، وعندها تستقوي النزعة العدوانية المقابلة لتمسي هي الطاغية بسبب ترويضها وممارستها، وكلما استقوت



تعتني خطبة حجة الوداع بختام ما أراد أن يقوله خاتم الأنبياء محمد ﷺ للناس، وهي خطبة تمتاز بأنها موجهة لإنسان كل زمان ومكان، إنسان كل لغة وقوم ولون. تكاد خطبة حجة الوداع تلخص مسير رسالة النبي ﷺ في الناس، تتفوح بأريج المسك الأخير الذي ينثره حامل ختم النبوة ﷺ، ليبقى طيب ريحه أبد الدهر، إنه طيب ريح وداع هذا الرجل الأمين للعالم، وهي بمنزلة تحية سلام إنسانية أبدية إلى الناس ما بقيت الحياة.

مشكاة خطبة حجة الوداع

لذلك أقبل الناس من مشارق الأرض ومغاربها، وعبر مختلف الحقب الزمنية إلى الاستنارة بمشكاة هذه الخطبة الخاتمة، التي أراد أن يختتم بها خاتم الأنبياء والرسول ﷺ حديثه إلى الناس، فكان الاحتفاء الكبير بها من قبل كل اللغات التي ترجمت إليها في العالم، وتركت أثرها البالغ على كل قارئ لمعالم هذه الخطبة الخاتمة، التي استفتحتها خطيبها الأمين بالذي هو خير.

إن خطبة حجة الوداع الثمينة التي غلبت عليها النزعة الإنسانية بامتياز، هي بمنزلة مرآة يرى الإنسان نفسه في ثنايا سطورها.. إنها ملخص عمر بأكمله من حياة محمد بن عبد الله ﷺ،

الحقوق والواجبات الإنسانية تجاه بعضهم بعضاً.

إن محمداً ﷺ يتحدث هنا عن كونه أتم أداء رسالة القرآن إلى الناس، ويريد أن يخبرهم بأنه سيغيب عنهم، بيد أنه يترك فيهم القرآن العظيم الذي يحفظه الله تشريعاً لهم. كأن النبي ﷺ في إشارته الأخيرة للناس يقول لهم: لا شيء لكم من بعدي سوى ما أرسلني الله به، فيقول: «تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله».

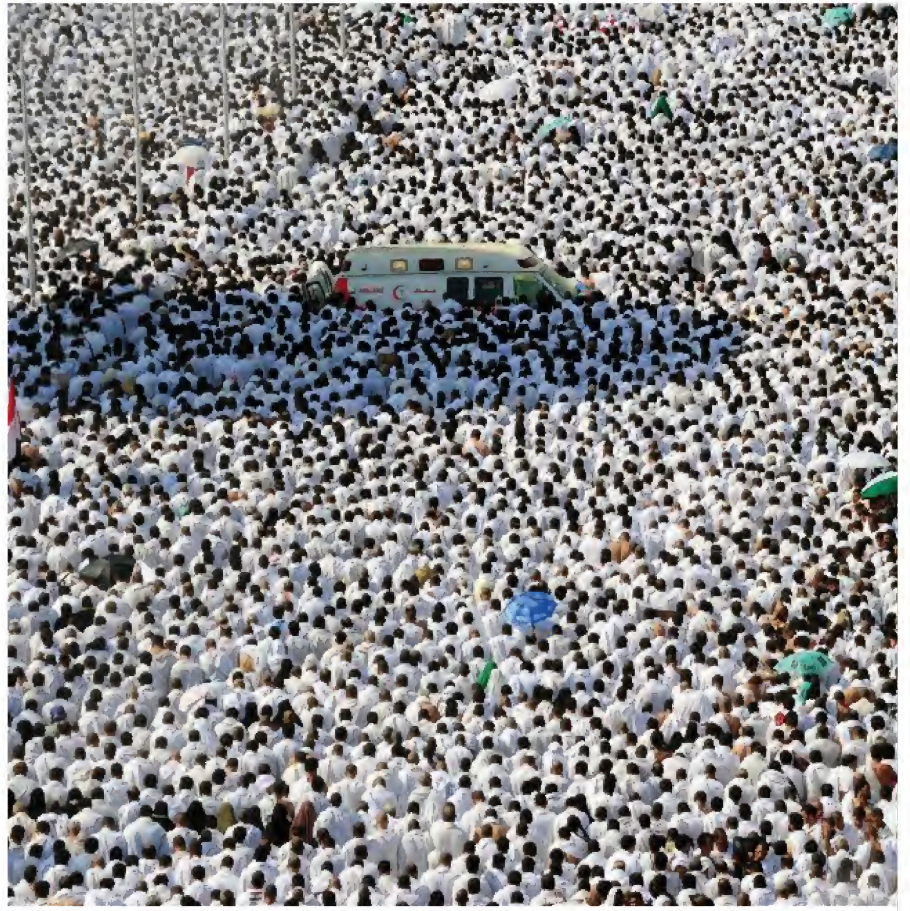
سدارة المنارة الإنسانية

مع كلمات هذه الخطبة الداعية التي يودع بها النبي ﷺ الدنيا والناس جميعاً، نشعر بدفع النزوع الإنساني، وصدق المشاعر الإنسانية التي تعزز حالة المحبة بين الناس.

يقول: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وأدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى». كلمات تذكر الناس بسواسياتهم كأسيان المشط، وهي تبث فيهم روح التواضع، ومشاعر الأخوة والمساواة والعدالة والحقوق والواجبات الإنسانية، فلا أحد أفضل من أحد سوى بارتقائه في درجات التقوى، هذه التقوى التي ترسخ الإنسان في قواعد إنسانيته كلما ارتقى في درجاتها حتى تبلغ به سدارة المنارة الإنسانية.

كلمة الختام

تكم أهمية وخصوصية هذه الخطبة في أن خطيبها رجل استثنائي أثار ظلمات الأرض والإنسان برسالة الله الخاتمة إلى الناس أجمعين، إنه الرجل الذي فضل الله عليه لما كان بوسع كوكب الأرض أن يتبرك ويتشرف بهذا التنزيل المبارك، ولم يكن الناس ليحظوا برحمة تبيان وتشريع الذكر الحكيم، ولنتصور مدى شقاء الإنسان دون نور القرآن، ودون أن يقول له الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).



العلاقة الزوجية شيئاً من طابع السرية والكتمان لما يدور بين الزوجين، لأن البيوت الزوجية العامرة هي تلك البيوت المزدانة بالأسرار بين الزوجين دون السماح بتدخل الآخرين في إيقاع الحياة الزوجية.

لننظر إلى حديثه ﷺ لمعاشر الرجال: «إنما النساء عندهم غوار لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً». إنها دعوة كي يتذكر الرجل بأن المرأة هي أمانة لديه وعليه أن يحسن إليها ويكرمها، فهي شريكته في كينونته الاجتماعية، والحفاظ على استمرار الجنس الإنساني على الأرض، وبدونها للبلد عازباً منعزلاً وحيداً، ولانقطع نسله، وانتهت الحياة في غضون سنوات معدودة، إنها تقف إلى جانبه دعامة أساسية في بناء واستقرار الحياة.

رابط الأخوة الإنسانية

توجه هذه الخطبة الإنسانية الخالدة إلى حق الإنسان على أخيه الإنسان، وواجب الإنسان تجاه الإنسان، فتذكر برابط الأخوة الإنسانية، هذا الرابط الذي يتساوى أمامه الناس جميعاً في

أن يقصر خطابه للمسلمين فقط، إنه خطاب عام للناس كافة من بعده؛ كي يؤدوا أماناتهم تجاه بعضهم بعضاً في عائلة إنسانية سمتها الأمانة، وينتهي الإنسان أن يستغل حاجة وضعف الإنسان في عملية الربا، والاستبدال بالقرض الحسن، هذا القرض الذي هو في جوهره سلوك إنساني يعزز مشاعر المحبة والألفة والإحسان في المجتمع الإنساني.

إنسانية العلاقة بين الرجل والمرأة

تبين هذه الخطبة الكريمة أن الميثاق الذي يجمع بين الرجل والمرأة هو ميثاق غليظ في تكاملية للعلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة، فتبين حقوق الزوج على زوجته، وحقوق الزوجة على زوجها، وهي حقوق كفيلة بإشادة دعائم بيت زوجي سليم، يتربى فيه أطفال يمكن أن يكونوا أعضاء صالحين نافعين، يسهموا في بناء الإنسان والبلدان.

يبين النبي ﷺ حدود الحياة الزوجية الآمنة بقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا. حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطَّنَ فَرْشَكُمْ وَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بِيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ وَأَلَّا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ».

نعلم هنا أن منغصات الحياة الزوجية تأتي من الآخرين، ولذلك أخذت